النثر الجاهلي والإسلامي والأموي:دراسة تحليلية

Pre-Islamic, Islamic and Umayyad Prose: An analytical study

نسرين طاهرملك[i]

Abstract

There are two basic categories of literature i.e. prose and poetry. The poetic reflections are characterized by the rhymes while prose is free from restrictions. By the passage of time some genres of Arabic prose became extinct or transformed and there have emerged new ramifications like novel, short story, drama and article. Nevertheless, both of poetry and prose are basic modes of expression for human reflections and sentiments, providing substance for the imposing literary parlance. These are the origin of sweet waters that quench the thirst of knowledge since generations, submitting overtures of unprecedented ideas by provoking elegant emotions, sentiments and sensations.

This research paper deals with the development and growth of Arabic prose during pre-Islamic, Islamic and Umayyad periods. In this paper it has been tried to elaborate that Arabic prose, witnessed many ups and downs since the ancient times and this is manifested by different prevailing styles, genres and types.

تنقسم الفنون الأدبيةأساساً إلى قسمين وهما: الشعر والنثر، بينما يتم طرح الأفكار الشعرية بالقوافي والأوزان اما النثر يكون بدون تلك القيود وكما يتفرع الشعر إلى فروع عديدة مثل الشعر العمودي والشعر الحر والموشحات والبند والمخمسات وغيرها كذلك النثر يملك عدداً متنوعاً ورائعاً من الألوان منها القصة والرواية والمسرحية والخواطر والخطابة والمقامات والرسائل وغيرها.

i الاستادةالمساعدة،قسم العلوم العربية،جامعة نمل،اسلام آباد

يتناول هذا البحث النشأة والتطور التاريخي للنثر العربي منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث كما أن للعرب كان في جاهليتهم نثر والذي قد وجد قبل الشعر أكثر منه وأغزر مادة ولكن الرواة لم يحفظوا من النثر شيئا يذكر بالقياس إلى ما حفظوا من الشعر[1].

ومن المعروف أنّ النثر العربي شهد منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا تقلبات كثيرة تجلت في مختلف الأساليب والأصناف والفنون النثرية حيث أنّ بعض الفنون النثرية قد إنقرضت أوتغيرت أشكالها والكتاب المعاصرون لا يطرقون الآن باب المقامات أو الرسائل الفنية ولكن برزت في النثر العربي فنون جديدة ومتطورة مثل الرواية والقصة القصيرة والمقال.ومع ذلك، فإنّ الشعر والنثر كلاهما تعبير عن الأفكار والعواطف الإنسانية، فمادة الشعر والنثرهي اللغةالأدبيةالعاليةالتي تنساب المياه من كلّ أجزائهابغرض ترويةظمأالمتلقي في صورة حلول وإقتراحات جديدة وأفكار غير مسبوقة، مثيرةللمشاعر والأحاسيس الراقية والجديدة.

النثر في العصر الجاهلي

(150–200 قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم)

ليس بين أيديناوثائق جاهليةصحيحةتدل على أن الجاهلين عرفواالرسائل الأدبيةوتداولوها،وليسمعن ذلك أنهم لم يعرفواالكتابة؛ فقدعرفوها، غيرأن صعوبةوسائلهاجعلتهم لايستخدمونهافيالأغراض الأدبية الشعريةوالنثرية،ومن ثم استخدموهافقط في الأغراض السياسيةو التجارية[2].

ومع ذلك، فإن الدارسين المحققين للتراث الأدبي العربي ذكروا من أنواع النثر الأدبي في تلك الفترة وهي:

1. الخطابة

إن الخطابةفي العصر الجاهلي كانت مهمتهاالنصح والإرشادوالتفاخروكذلك المنافرةوالدعوة إلى حالةالسلم ومحاولةحقن الدماء حيث كانت تعقد في الأسواق والمحافل والوفودعلى الملوك والأمراء، بينما أشهر خطباء العصر الجاهلي يتضمن قيس بن ساعدة وسهيل بن عمرو ولبيد بن ربيعة والحارث بن عباد البكري واكثم بن صيفي التميمي.

2. القصة

القصةتتناول حادثةأوواقعةواحدةأوعدةوقائع التي تتعلق بشخصيات إنسانيةمنهاوأخر بمختلفة – غيرإنسانية– ولهاقسمين حسب طبيعةلأحداثهما:حقيقيةواقعيةوخيالةخرافية. هكذا فالقاص والحاكي الجاهلي كان يتخذ مجلسه بالليل أو في الأماسي عند مضارب خيام قبائل البدو المتنقلة وكانت مادته القصصية تدور حول مواضيع متعددة ومتنوعة بغية التسلية والمتعة أو الوعظ

والإرشاد أوالخرافة والأساطيرأو الفروسية وتاريخ القبيلة وبطولات الأمجاد اما تلك القصص تناقلت إلى العرب الجاهلي عبر الرواية من الأسلاف[43].

3. الحكم والأمثال

الحكم والأمثال جمل قصيرةبليغةخاليةمن الحشو تشير إلى تجار بالحكماء والمعمرين في الحياةوالعلاقات بين الناس وهي ثمارناضجةمن ثمرات الإختبارالطويل. وقد إشتهر عندالعرب في العصرالجاهلي طائفةمن أولئك الحكماء مثل لقمان عادو هوغيرلقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم،وأكثم بن صيفي، وعامربن الظرب، وأكثم بن عامر، وهرم بن قطبة، ولبيدبن ربيعة. ولايكاديوجدفي العصرالجاهلي سيد أوشريف أوخطيب مشهور إلاأضيفت إلي هجملةمن الحكم والأمثال[5].

4. الوصايا

تمتازالوصايافي العصرالجاهلي بالجمال وتناسب الجمل والرقة ومن أمثلتها هي وصية زهير بن جناب الكلبي لبنيه وهكذا وصية ذي الأصبع لإبنة.

5. النثر المسجوع للكهان

هذا ضرب خاص من الخطابةعرف في الجاهليةوإنقرض بظهورالاسلام، فنلاحظ فيه عددالقوافي المكررة والغموض والتكلف، اماالكهان فهم طبقةمن الرجال كانوافي العصرالجاهلي يشغلون الوظائف الدينيةالوثنيةفي أماكن العبادات وبيوت الآلِهة،وكان يطلق على احدهم الكاهن منهم اكثم بن صيفي والماموالحارثي ومن النساءزبراء(كاهنةبنيرئام التي انذرتقومهابالغارةعليهم فقالت: واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق) وشافع بن كليب الصدفيّ وشِقَّ ابن الصعب وسطيح بن ربيعة الذئبي وسلمى بن أبي حيّة والشعثاء وذي الخلصة والسعدية والزرقاء والغيطلة القرشية[76].

النثر في عصر صدر الإسلام (بعثة النبي صلى الله عليه وسلم–40هـ)

كان النثر هو المدافع الأقوى عن مبادئ الإسلام وأفكاره الذي إحتضن النثر إحتضاناً قوياً فغدا في مكانة أرقى وأعظم بشكلين بارزين هما: الخطابة والكتابة.

الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة كما إتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبّر الكون

ويستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والإجتماعية والإنسانية، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا. كان يخطب لإخراجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتي من الفصاحة ما ملك به أزِمَّة القلوب كأنما المعاني والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه، ويختار منها ما تهش له الأسماع وتصغي له الأفئدة.

وهكذا كان الخلفاء الراشدون الأربعة (أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين) في الذروة من الفصاحة والبلاغة، إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول صلى الله عليه وسلم بمواعظه وتشريعاته، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم كما إستنوا بجانب هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة وذلك في وصاياهم يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا لمأكلة ولا يتعرضوا للرهبان النصارى. وتصور ذلك كله وصية أبي بكر الصديق لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام[98].

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفضّلها منذ أول آية نزلت على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فقال جل شأنه: (إقرا باسم ربك الذي خلق) وهكذا تتردد في القرآن كلمات القلم والكتاب واللوح والقرطاس والصحف[10].

وعمل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة[11].

وإهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالكتابة وأمر المسلمين بها وليس أدل على ذلك من تشجيعه الصحابة تعلم لغة اليهود لأمن مكرهم.وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم كتاب كثيرون مهمتهم كتابة الوحي وكتابة الرسائل النبوية للأمم المجاورةوملوك فارس والروم ومصر والحبشة وملوك حمير وهمدان وبني كلب وغيرهم دعوة للإسلام.

وشملت الكتابة في عصر صدر الإسلام مجالات جديدة لم يكن يعرفها العرب قبل الإسلام كالمعاملات والبيوع والعقود السياسية والعهود والمواثيق وكل ما من شأنه تنظيم أمور المسلمين عملاً كما أصبحت الكتابة جزءاً من أعمال الدولة الأساسية لدى الخلفاء الراشدين

في الدواوين سواء في العلاقات السياسية أو الاقتصادية بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الذمة والخراج وقسمة الغنائم وغيرها[12].

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتيا من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح وخروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد وإنتشارهم في مختلف البلاد وإمتزاجهم بالأجناس المتعددة وتأيرهم بالمدنيات والعقليات المختلفة[13].

ومع ذلك، فإنّ الخصومة في الإمامة والجدل العنيف بين مختلف الفرق التي نجمت عن الخلاف في الخلافة وبعدئذ إتساع ذلك الجدل إلى الذهن العربي إعتماداً على تأويل القرآن وإفتعال الأحاديث وإستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية فضلاً عن عقد المناظرات وإلقاء الخطب وعودة العصبية القبلية هي العوامل التي أسهمت في إزدهار فنون النثر في العصر الأموي وأهمها هي:

الخطابة

حسب ما سبق الذكر، فإنّ نشأة الفرق وظهور الأحزاب السياسية المختلفة هي من المؤثرات التي أدت إلى تغييرات واسعة في حياة العرب خلال العصر الأموي، الأمر الذي حث الخطباء على ما يتعرض للأمور السياسية والدينية والإجتماعية وأغصان الخطابة أورقت ولذلك فالعصر الأموي ألمع إمتيازا بسبب تطور الخطابة العربية ونشأة كثيرين من الخطباء حتى ظهرت نخبةمنالخطباءمنهم:عبدالله بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفي وزيادبن أبي هوالحسن البصرى والأحنف بن قيس وقطري بن الفجاءة[14].

الكتابة

نمت الكتابةفي العصرالاموي نمواواسعا وعرف العرب فكرةالكتاب والفوا كتباكثيرةبعضهادييني يتصل بمسائل الفقه والتشريع الاسلامي. ونشطت الكتابةالتاريخية ، فكتب المؤرخون في مغازي الرسول صلى الله عليه و سلم إلى جانب الرسائل السياسية التي تصدرعن دواوين الخلفاءوالولاةأوعن خصومهم والرسائل الاجتماعيةالتي يتبادلهاالناس في أمور حياتهم الشخصيةوالرسائل الدينية التي اتخذت اماشكل الموعظةأوشكل الحوارو الجدل. والكتابة الدينية فقدكان كتابهامن الذين مرنواعلى الخطابةوالجدال والحوارفي المسائل الدينيةوالمذهبيةلذلك هم اضفوا على كتابتهم نفس الصورةالبيانيةالتى اضفوهاعلى خطاباتهم.

وعلى نفس الغرار، فإنّ العصر الأموي يمتاز بتدوين كثير من الرسائل الشخصية كما إشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ ليرسلوا إليه بعظاتهم. ويمكن القولأنّ

الرسائل الشخصية شاعت بحكم تباعد العرب عن الوطن الأصلي (شبه الجزيرة العربية) وبتأثير بعض ظروف من موت يقتضي التعزية أو ولاية تقتضي التهنئة أو شفاعة عند وال لقريب أو صديق أو عتاب أو اعتذار[15].

ولعلمن أهم الأسباب التي هيأت لرقي الكتابةالفنيةفي العصرالأموي هوتعريب الدواوين في البلادالمختلفة،وتعقدالحياةالسياسية،وكثرةالأحزاب والمذاهب[16].

وقدتجلت بواكيرالكتابة في أواخرالعصر الأموي بفضل موهبة عبدالحميد بن يحيى الكاتب. وأجمع النقادوالمؤرخون في القديم والحديث على أن عبدالحميدإمامطور جديد في الكتابة العربية، وأنه هوالذي وضع الأساس لهذاالمنهج الكتابي الذي اقتفاهالكتاب من بعده،وهو « أبلغ كتاب الدواوين في العصرالأموي وأشهرهم،وقدضربت ببلاغتهالأمثال»[17].

الهوامش

1 في الأدب الجاهلي: طه حسين، دار المعارف، القاهرة مصر، الطبعة الخامسة عشرة، ص 325

2 الفن ومذاهبه في النثرالعربي:الدكتور شوقي ضيف،الطبعةالثالثةبدارالمعارف، 1960م، ص19

3 موقع جامعة أم القرى:(https://uqu.edu.sa)التاريخ 24 يونيو 2015م الساعة: 7:00 مساء

4 مقال عن الأسلوب البلاغي في العصرين الجاهلي والإسلامي: الدكتور عبدالكريم حسين علي رعدان، جامعة أفريقيا العالمية، مدينة الخرطوم سودان، 2006م

5 النثر في العصر الجاهلي: هاشم صالح مناع، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة مصر 1993م، ص5-25

6 تاريخ الادبالعربي:نوريحموديالقيسي،ص358

7 أدب العرب في عصر الجاهلية: الدكتور حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان بيروت، 1996م،ص 150-175

8 سلسلة تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي: شوقي ضيف، الطبعة العشرون 2002م، دار المعارف، ص 106-124

9 المعالم الحضارية والأدبية في عصر صدر الإسلام: انور عبدالحميد الموسى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، 2013م، ص 25-27

10 سلسلة تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي: شوقي ضيف، الطبعة العشرون 2002م، دار المعارف، ص 129

11 الطبقات الكبير: ابن سعد الزهري، ج 2/ص 14

12 تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، دارمكتبة الحياة، بيروت، 1983مالنثر في العصر الأموي (41 هـ - 132 هـ)

13 تاريخ الأدب العربي: احمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص 84-85

14 النثر في العصر الأموي:عرفان الأشقر وغازي طليمات، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2010م، ص 10-20

15 فن النثر في العصر الأموي: رفيق خليل عطوي، الأكاديمية اللبنانية للكتاب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2002م، ص 50-60

16 النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: عبدالحكيم بلبع، مكتبة الأنجلو المصرية، لاط، لاتا، ص 122

17 الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، الطبعة الثالثة عشرة، دار المعارف، ص 114